الرحلة الايطالية

وداع إيطـــــاليا

على بحيرة كومو

فى شطّكِ الأحْوَى ختامُ مطافى ... يا جَنة الملتاع والمصطاف (١)

طافت بشطيْك الرّبى مخضرّةً ... بالغار والزيتون والصفصاف

وطلعت كالقدح المدوّر مترعاً ... حتى الطفافة بالرحيق الصافى (٢)

سكِرَتْ بمرآك النواظر والحجى ... والحسُّ سكراً غير ذى إنزاف (٣)

وتنزّلتْ فيك السكينة كالندى ... فى نفسِ مجروح الحشى لهّاف (٤)

طاب التوحُّدُ فى حماك ولم يكن ... عندى التوحّد طيّبَ الأوصاف

ما سُوحِدَ مَن كان فيك مصاحِباً ... للطيب والألوان والأعطاف

أزهار بستانٍ ، ودَوْح خميلة ، ... وشذاً كأذكى العطر للمستاف (٥)

يا ما أحيلى ساعةً سُليتُها ... فى ظل تلك الدوحة المضياف (٦)

فى ظلها عرفتْ أفاويقَ الرضى ... مَن لم تكن تدريه غير نطاف (٧)

رودٌ من الملكات جافت خدرَها ... كرهاً ولم تخلع ثيابَ زفاف (٨)

جوّابةٌ شرقاً تهيم ومغرباً ... تهيامَ لا وانٍ ولا وقّاف

هامت طويلا ما إستقر بها النوى ... إلاّ بساحل لجّك الرّجاف

تخذتك خندقها الملاذ ، دونه ... جيشٌ من التشهير والارجاف

يا حسنَ مائك لازوردا أزرقاً ... ذا رونق كالجوهر الشفّاف

عينى موكّلةٌ به مسحورةٌ ... ترنو إليك بناظر مسراف

أبداً تَعرّس فى حشاك كأنه ... يُطوَى على سرٍّ لسحرك خاف

يحكى صفاؤك لى — كرؤيا حالمٍ — ... عن كل ما فى هذه الأكناف

جلّيتهنّ فكل شئ لامعٌ ... وشففتهنّ فكل شئ طاف(٩)

رقصت بصفحتك الربى وتخايلت ... شمُّ الجبال عليك كالأطياف

و بدا المرابُ عليك بيضَ ملائكٍ ... تهفو بأجنحة لهنّ لطاف(١٠)

وتراءت الجناتُ فيك وأصلُها ... فى ضفتيك شوابكَ الأطراف

لله أنتِ ، بكل ركنٍ آيةٌ ... تُحيى يقينَ الملحد المتجافى

لوددتُ أحيا فى ضفافك مُخلَداً ... بعضُ الحياة هنا خلودٌ كاف

لوددتُ ، لولا أن عَوْدىَ مُعْجَلٌ ... نادَى به داعى الهوى المتلاف

نادت به زوجى هناك ضجيعةً ... فى أرض وادى النيل كالأضياف

يا أرض إيطاليا الوداعَ على الهوى ... والودّ والتقدير والانصاف

أرضَ الطبيعة كالجنان تعرّضت ... فى الحلم ألطافاً على ألطاف

أرضَ الفنون تجمّعت آياتُها ... كالشهب آلافاً على آلاف

لك من طبيعتك الجميلة غُنْيةٌ ... عن عسجد اللّبات والأشناف

ومِنَ الفنون إذا دهتك كريهةٌ ... ينبوعُ سحرٍ من جراحك شافى

عبد الرحمن صدقى

---

(١) الاحوى : الاسود تعلوه خضرة .
(٢) الطفافة من الاناء أعلاه .
(٣) الانزاف : ذهاب العقل من السكر .
(٤) اللهاف من لهف نفسه بتشديد الهاء : قال والهفاه متحسراً على نفسه .
(٥) المستاف : المستنشق .
(٦) الدوحة المضياف إشارة إلى دوحة جميز من أعظم الدوح فى إيطاليا فى الفندق القائم على بحيرة كومو المعروف بفيلا ديستى Hôtel Villa d'Este .

(٧) الأفاويق : الفيض فى أثر الفيض . وأصله ما اجتمع من الماء فى السحاب فهو يمطر ساعة بعد ساعة .

(٨) الرود الشابة الحسنة . والاشارة هنا إلى الأميرة ثم الملكة كارولين ابنة دوق برونزويك الألمانى وزوجة ولى عهد انجلترا ثم ملكها جورج الرابع ، وقد انفصلا بعد عام واحد من زواجهما ولم يمض على ميلاد ابنتهما شارلوت إلا القليل . فعاشت الأميرة فى عزلتها نحو الثمانى عشرة سنة فى إنجلترا . وعلى الرغم من المساعي التى بذلت والأدلة التى أقيمت على كذب الأراجيف الشائنة التى ألصقت بها ، بقى الأمير مصراً على سوء ظنه بها وجفائه لها . فرحلت الأميرة عام ١٨١٤ إلى موطنها فى برونزويك فاذا هى موضع القيل والقال فى قصر الأمارة الألمانية ، فكرهت المقام بين قومها . وعمدت إلى الأسفار تلتمس التفرج والسلوى بالمشاهد والآثار . فارتحلت أول ما ارتحلت إلى نابولى ، ثم زارت جزائر إلبا وكورسيكا وصقلية ، ثم أبحرت إلى شمال افريقية ومن بعدها إلى فلسطين واليونان ومالطة ، ثم عادت إلى نابولى ومنها إلى رومه . وكانت تهبط حيثما هبطت مثل ملك الخير ، تعوّد المرضى وتحسن إلى الفقراء المحتاجين حتى عرفت بينهم باسم « الأميرة المحسنة La buona Principessa » . ثم أصعدت الأميرة إلى شمال إيطاليا ؛ وأقامت بعض الوقت فى ليفورن وجنوه وميلان ، حتى إذا زارت منطقة البحيرات كانت بحيرة كومو أكثر المواضع فتنة لها وأطيبها موقعاً فى نفسها . فاشترت فى شرنوبيو Cernobbio مغنى على البحيرة ، فجملته ، وزادت فيه ، وجعلت له المراسى من رخام للمراكب والقوارب ، واستجدت به حديقة منسقة على الطراز الانجليزى ، وفيها دوحة الجميز الكبرى — ويقال إنها أبدع دوح الجميز فى إيطاليا بأسرها — وفى ظلها كانت تجلس الأميرة الانجليزية الجميلة La graciosissima Principessa فى أكثر الأحيان ، تطعم وتسمر طلباً للسلوان ، مع حاشيتها وخاصة معارفها والمتصلين بها . واستقرت كارولين فى هذا المغنى الذى عرف من وقتها باسمه الجميل فيلا ديستى Villa d'Este ، حتى إذا مات الملك جورج الثالث ، وآل العرش إلى زوجها ، رأت من واجبها ومن حقها — وهى اليوم ملكة بريطانيا العظمى و إيرلندة — أن تعود إلى لندن إلى جانب زوجها الملك ، فاذا بها تمنع من الاشتراك فى حفلة تتويجه فى كنيسة وستمنستر ، ثم لا ينقضى على هذا المنع الأليم أسابيع ثلاثة حتى تقضى هذه الملكة التعسة نحبها كسيرة القلب فريدة مستوحدة .

(٩) شفه : أنحله ورققه .

(١٠) الرباب السحاب الأبيض .